مستقبل العربية مرتبط بمستقبل الإسلام

للأستاذ علي رضي أبو زريق

القاهرة ـ مدينة البعوث الاسلامية

لا شك ان اللغة العربية عند نزول القرآن كانت قد وصلت قمة ما يمكن أن تصل اليه لغة .

وكان نضج اللغة العربية يتمثل فى طرفين:

أولهما : اللغة نفسها بما فى حروفها ومخارج اصواتها من كفاية للتعبير عن اي صوت قد يحتاجه الانسان ، وابرز دليل على هذا تسميتها بالضاد ، وذلك لامتيازها بهذا الصوت (الضاد) عن غيرها من لغات الارض ، ثم بما فى تعبيراتها من كفاية لجوانب الحياة وقد ظهر هذا واضحا فى القرآن الذي نزل بلسان عربي وشمل كل اصول الحياة ونواحيها (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) ثم بما اتسعت له العربية فيما بعد من مستحدثات الحضارة وما نقل اليها من افكار وفلسفات لم تكن فيها اصلا .

وثانيهما : الناطقون بهذه اللغة ، فقد عملت الطبيعة على اعدادهم اعدادا خاصا جعلهم اهل لغة ولسان قبل كل شيء وذلك بما هياته لهم الطبيعة من ضيق فى العيش وفراغ فى الوقت ، فضيق العيش منع القوم من الاتجاه الى الدنيا والاهتمام بأمورها المادية . وفراغ الوقت تعاون مع ضيق مجالات الحياة ليوجه القوم الى القيم الجمالية ، ودور اللغة فى هذا لا يخفى على أحد .

ومع هذا فان اللغة العربية وقت نزول القرآن لا يمكن أن نسميها لغة الا من باب المجاز ، فالفوارق واسعة وواضحة بين لهجات القبائل المتعددة ، فكان ابن القبيلة المعينة لا يفهم لهجة القبيلة الاخرى ، وعدا عن اللهجات الكثيرة المتباينة كالطمطمانية والكشكشة ولغة اليمن ولهجة قريش ، هذه اللهجات التي يذكرها لنا تاريخ الادب العربي تفصيلا ، فقد ذكرت لنا كتب السيرة وقائع صادقة منها مثلا ان وفدا يمانيا كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نوى الوفد سفرا فسألوا رسول الله بلهجتهم (هل من امبر امصيام فى امسفر) فاجاب رسول الله (ليس من امبر امصيام فى امسفر) فكيف بالله يفهم القرشي معنى هذا الكلام . اما رسول الله فعندما سئل عن معرفته لهذه اللهجات اجاب (علمني ربي فاحسن تعليمي).

ويحكي لنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، انه سمع مرة احد المسلمين غير القرشيين يقرأ كلاما في الصلاة لم يفهم منه عمر شيئا ولا سمعه من رسول الله ، فهم بقتل الرجل ، ثم انتظر حتى اتم الرجل صلاته فأمسكه عمر من ثيابه وسار به الى رسول الله واخبر الرسول بالخبر ، فأمر الرسول الرجل بأن يقرأ فقرأ فقال الرسول (هكذا نزلت) ثم امر عمر بأن يقرأ نفس السورة فقراها فقال رسول الله (هكذا نزلت) فعجب عمر والمسلمون فقال رسول الله (ان هذا القرآن نزل على سبعة احرف فاقرأوا ما تيسر منها).

ولنرجع قليلا الى الوراء وننس نزول القرءان ونقف او نتقدم قليلا متجاهلين الحادث العظيم ولنطرح على انفسنا هذا السؤال : هل كان هناك اي داع لتوحيد العربية لو لم ينزل القرآن ، بل هل كان يمكن ان تقترب اللهجات العربية من بعضها لو لم يكن كتاب الله ؟ واظن ان العقل والتاريخ يجيبان بصوت واحد لا والف لا ، ففي اوربا كانت اللغة اللاتينية لغة الدولة والادب والفن ، ولم تنقض فترة من الزمن طويلة حتى اصبح لكل اقليم من اقاليم اوربا لغة قومية خاصة لا تربطها بلغات الاقاليم الاخرى اية صلة ، فهل كان يمكن ان يكون مصير العربية افضل من هذا المصير او حتى مثله ؟ لا اظن ذلك فان العرب كانوا اكثر تفككا

وتباعدا من أوربا ، فقد كان للاخيرة دولة واحدة بينما كانت الامة العربية قبائل لا يربطها الا حد السيف أو سنان الرمح .

واضح اذن أن القرآن هو السبب الاول والاخير في توحيد لهجات اللغة العربية وجعلها لغة واحدة .

والقرآن قام بهذا الدور بما فهمه المسلمون الاوائل عنه انه دستور الحياة والدولة ومصدر القوانين والسلطات وكتاب العقيدة ومنهاج العبادة ومنظم الاخلاق . فالدولة لا تكون شرعية اذا اهملت آية واحدة منه ، وكل انسان في الدولة مسؤول عن تطبيق القانون والمحافظة عليه بل المطالبة بتنفيذه بأمانة اذا لزم الامر ذلك . وهو كما قلنا كتاب عبادة يرجع اليه في كل صغيرة وكبيرة في حياة المسلم ، ولا تقبل صلاته، التي يمارسها خمس مرات يوميا ، الا بتلاوة آيات منه ، كما أن قراءته في ذاتها عبادة يؤجر الله عليها .

وليس هذا فحسب ، فالقرآن كلام الله لا يمكن ترجمته وتبديله وذلك لان طبيعة المعجزة القرآنية لا تتم الا اذا بقي على حاله ، فاعجازه في بلاغته ، وبلاغته مرتبطة باللسان العربي ، وهذا هو الذي رفع مكانة اللغة العربية فأصبحت مقصدا بعد أن كانت وسيلة تفاهم ككل لغات الارض ، فدراسة اللغة العربية بدقة وعمق ، ودراسة اساليب الجمال العربية اصبحت الوسيلة السليمة الفعالة لفهم القرآن الكريم الذي ذكرنا اهميته في حياة المسلم الخاصة والعامة .

ونخرج من هذا بنتيجتين هما :

1 ـ أن القرآن اعطى اللغة العربية معنى اكثر من كونها لغة .

2 ـ أن اللهجات العربية توحدت عندما وجدت الحاجة لذلك .

اذن لابد من حاجة وضرورة لتوحيد اللهجات لا للغة العربية فحسب ولكن لاية لغة .

وبما أن اللغة شيء يستعمله كل الناس المثقف وغير المثقف والامي والمتعلم بنفس النسبة ولنفس الغرض ، فلا بد أن يكون الداعي لتوحيد لهجات لغة ما **امر عظيم يدفع الناس** من اعماقهم ولداخل نفوسهم ، **ولا يجذبهم جذبا** ولا اظن أن امرا ما يستطيع أن يجذب الناس لتوحيد لهجاتهم (مهما عظم) ، لان الناس مهما كانت معادنهم قوية فانهم دائما يميلون الى الاسهل ، والاسهل هنا ، هو ما شب عليه اللسان ، وهذه حقيقة تؤكدها تواريخ لغات الارض جميعا ، اذ كانت دائما تميل للتعدد والتباعد والتباين فيما بينها.

والآن والامة العربية تعيش ظروفا تشبه ظروفها قبل الاسلام ، نستطيع أن نقول انه لا يمكن للهجات العربية الموجودة حاليا أن تلغى ، ولا بد للعاميات من أن تستفحل وتدخل خضم الادب لتسهل على الشعوب العربية فهم أدبائها ، خاصة وانه لا توجد ضرورة لتوحيد اللهجات العربية ، فالنظم السياسية مختلفة والعقائد مشتتة واكثرها مستورد من امم اخرى ، فليست العربية بذات بال في هذا الصراع ، بل ان السياسي العربي مضطر لاستعمال كلمات واصطلاحات لا تمت لتاريخ هذه الامة بصلة ، ذلك لان دعوته السياسية تكونت في ظلال لغة اخرى بعيدة عن العربية.

واعتقد بهذا ، اننا نكون قد وصلنا الى نتيجة حاسمة وهي أن مشاكل اللغة العربية ليست مشاكل فنية بقدر ما هي مشاكل سياسية وفكرية ، وهذا بالطبع ينطبق على المشكلة العربية الاولى وهي اللهجات العامية .

وبالتالي نستطيع ان نقول ان اللغة العربية لن تأخذ طابعها المميز ولهجتها الفصحى الواحدة ما لم تدع لذلك ضرورة ماسة تدفع الانسان العربي من داخله للتخلي عن لهجته السهلة ودراسة اللغة الفصحى ولا يمكن ان تكون هذه الضرورة غير القرآن ، اقول هذا بلا تحفظ ولا تحيز ، وذلك للآتي :

1 ـ لن ينزل قرآن آخر ، ولن يوجد كتاب له قداسة القرآن واهميته ، اذ انه لا انبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

2 ـ المباديء المستوردة لا تحتاج للغة العربية بل ستكون سببا في انهيارها .

3 ـ مجرد الدعوة للوحدة العربية وبثها في نفوس العرب على اي اساس كان غير الاسلام لايدعو اطلاقا لتوحيد اللهجات العربية ، ولا يمكن ان يكون دافعا للتخلي عن اللهجات المحلية.

فعندما نعود الى القرآن وندخله كل جوانب حياتنا وعلى كل المستويات ، عندها فقط ، تصبح اللغة العربية الواحدة ضرورة وواقعا ويقبل عليها كل العرب بل وغير العرب من المسلمين ، لان اللغة العربية الواحدة تصبح في ذلك الحين لا مجرد لغة بل جزءا اساسيا في الاسلام .

ونحن لا نريد العودة الى القرآن من اجل العربية (بالطبع) ولكن نعود اليه عندما نتيقن انه الطريق الوحيد لخلاصنا .